أبو سعيد الخراز

للدكتور عبد الحليم محمود
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

اتجاهه

كل ما فاتك من الله سوى الله يسير ، وكل حظ لك سوى الله قليل

بهذه الحكمة البالغة التى نطق بها أبو سعيد ، نبتدىء الحديث عنه ، ولا نبتدىء بهذه الحكمة اعتباطا ، ولكن لانها محور تفكيره .

لم تخدعه زخارف الحياة الدنيا ، ولم تلهه مفاتنها ، فاختط لنفسه طريق الصديقين ، وسار على نهج أولياء الله .

لقد ابتدأ ـ كما تبتدىء الصفوة المختارة ـ باحثا متقبا عن الله ، فوجده ظاهرا فى آثاره ، لقد وجده فى النسمة العليلة ، وفى الزهرة الندية ، وفى النجم المتالق ، وفى شعاع الشمس الذهبى ، لقد وجده فى الخير ، وفى الجمال ، وفى الجلال ، فأحبه وهام به . وكانت حالته كما يصف هو ، فيقول :

المحب يتعلل الى محبوبه بكل شىء ، ولا يتسلى عنه بشىء ، ويتبع آثاره ولا يدع استخباره .

وكثيرا ما أنشد تعبيرا عن حاله أيضا :

أسألك عنها فهل من مخبر ... فمالى بنعم مذنأت دارها علم
فلو كنت أدرى أين خيم أهلها ... وأى بلاد الله اذ ظعنوا أموا
اذن لسلكنا مسلك الريح خلفها ... ولو أصبحت نعم ومن النجم

وكثيرا من الناس يفيض الله عليهم النعم ، ويمنحهم من جوده فينعمون بما أنعم لاهين عنه ، ويتلذذون بما منحهم من أسباب الملاذ غير متجهين اليه سبحانه ..

أما أبو سعيد فكان مسلكه ، وكان شعاره شيئا آخر .. انه يعبر عن منهجه حين يقول :

ينبغى أن يكون فرحك فى العطاء بالمعطى ، ولذتك فى اللذات بخالق اللذات ، وتنعمك فى النعم بالمنعم دون النعم ، لان ذكر النعمة عند ذكر المنعم حجاب ، ورؤية النعمة عند رؤية المنعم حجاب • ويشرح حديث رسول الله صلوات الله عليه ••

« جبلت القلوب على حب من أحسن اليها •• » فيقول : واعجبا ممن لم ير محسنا غير الله ، كيف لا يميل بكليته اليه » !!

وفى الاتجاه الى الله نعيم لا يبدله نعيم ، ولذة لا تعد لها لذة •• واذا نعم الناس بملبس يبلى ، أو بمطعم لا تلبث حلاوته أن تزول فان لأولياء الله نعيمهم المبرأ من الأوضار •

ان لهم نعيمهم الروحى ، ولكن لهم أيضا نعيم أبدانهم الطيب الطاهر

يقول أبو سعيد :

ان الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره ، والوصول الى قربه ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزل نصيبهم من كل كائن ، فعيش أبدانهم : عيش الجنانيين « أهل الجنة » ، وعيش أرواحهم : عيش الربانيين •

ولا عجب بعد ذلك ، انه اذا أنس الناس بالاخلاء والأخدان ، أن يكون أنس أبى سعيد بالله ، ولا عجب أن يكون حديثه عن الانس بالله ، يمتاز بالدقة والوضوح • يقول أبو سعيد ، وقد سئل عن الأنس بالله ماهو ؟ :

استبشار القلوب بقرب الله تعالى ، وسرورها به ، وهدوها فى سكونها اليه ، وأمنها معه من حيث الروعات ، واعفاؤه لها من كل ما دونه أن تشير اليه ، حتى يكون هو المشير لأنها ناعمة به ولا تحمل جفاء غيره

حياته

بغدادى النشأة والمنبت ، ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى تقريبا ، واشتهر بأبى سعيد الخراز ، واسمه : أبو سعيد : أحمد بن عيسى الخراز

وقد صحب ذا النون المصرى ، وسريا السقطى ، وبشر بن الحارث ، ونظراءهم

يذكره صاحب طبقات الصوفية فيقول :

هو من أئمة القوم ، وجلة مشايخهم •

ويذكر أنه قيل :

انه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء •

أما صاحب الحلية ، فانه يقول عنه :

ومنهم : العارف المعروف الكامل ، بالبيان موصوف ، له الكتب المذكورة والأجوبة المشهورة ، صحب ذا النون ونظراءه ، انتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء .

ويتحدث مؤرخوه ، كلهم تقريبا ، بأنه روى الحديث التالى باسناده :

« **سوء الخلق شؤم ، وشراركم : أسوؤكم أخلاقا** »

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته :

فيذكر صاحب الرسالة القشيرية : سنة سبع وسبعين ومائتين .

ويذكر صاحب الطبقات : سنة تسع وسبعين ومائتين

رأيه فى المعرفة وفى الطريق الموصل اليها

يهدف الصوفية دائما الى معرفة ما وراء الطبيعة معرفة يقينية ، ولكن كيف تتأتى المعرفة ؟

انها حسبما يرى أبو سعيد : (تأتى القلب من وجهين : من عين الجود ، ومن بذل المجهود) .

انها فيض من الله ، وانها اكتساب وجهد ، وفى الوصول اليها السعادة ، بيد أن طريقها وهو نفس الطريق الى الله ، ليس سهلا هينا ، واذا كانت الغاية نفيسة فلا يتأتى أن يكون سبيلها تافها

كيف نصل الى الله ؟ ما هو الطريق اليه ؟ كيف نصل الى خالص العلم ؟ كيف نرد على حياض المعرفة ؟

سئل أبو سعيد عن أوائل الطريق الى الله فقال :

التوبة ، ثم ذكر شرائطها ، ورسم الطريق الذى يرسمه الصوفية ، وهو طريق نفسانى سيكلوجى من أدق ما يكون ، ينتقل فيه الانسان من مرحلة الى مرحلة ، مترقيا من مقام التوبة ، حتى يصل الى مقام المحبين ، ويترقى الى مقام المقربين ، فاذا وصل الى هذه المرحلة ، أدمنت روحه النظر فى النعمة ، وفكرت فى الأيادى والاحسان ، فانفردت بالذكر وجالت فى ملكوت عز الله ، بخالص العلم به ، واردة على حياض المعرفة ، اليه صادرة ، ولبابه قارعة . فنعمت وسعدت . وتمثلت بقول الحكيم :

أراعى سواد الليل أنسا بذكره ... وشوقا اليه غير مستكره الصبر
ولكن سرورا دائما وتعرضا ... وقرعا لباب الرب ذى العز والفخر

فاذا ما ورد الانسان حياض المعرفة ، هل يتأتى له أن يعلم ما يخالف الشريعة ؟

هل الباطن ، وهو المعرفة التى وصل اليها ، يخالف الظاهر ؟

مل الحقيقة ، تخالف الشريعة ؟

يقول أبو سعيد كلمته الحاسمة :

كل باطن يخالف ظاهرا : فهو باطل ٠

وكتاب الصدق ، وهو الوحيـــد الذى بقى من آثـــاره الذى نشره المستشرق : « آربرى » كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها ، لأنها ذخيرة نفيسة ، لا يصـح أن تبتذل للعامة ، وكأنها لؤلؤة مكنونة ٠ لا يستساغ أن تتقحمها أعين الدهمـــاء ٠

والواقع : أنه مختصر فى غاية النفاسة ، يرسم ، فى دقة وفى وضـوح الطريق الى الله !!

الميثاق الأكبر

قال الله تعالى : « **واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أءقررتم وأخذتم على ذلكم أصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** »

سـيد ولد آدم

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وبيدى لواء الحمد ولا فخـر ، وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر » ٠٠

رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى ٠٠

حبيب الله

عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فقال بعضهم عجبا ان الله عز وجل اتخذ من خلقه ابراهيم خليلا ، وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه ربه تكليما ، ، وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم فسلم ، وقال : سـمعت كلامكم ، وعجبكم ان ابراهيم خليل الله وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك الا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ، ولا فخر ، وأنا أول شافع ، وأنا أول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا اول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فيدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر » / رواه الترمذى

رحيم بامته

قال الله تعالى : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** » ٠٠